صَبيٌّ كَبير



تأليف: فادية حطيط

رسم: أنجيلا نوربتليان

صَبيٌّ كَبير



تأليف: فادية حطيط
رسم: أنجيلا نوربتليان

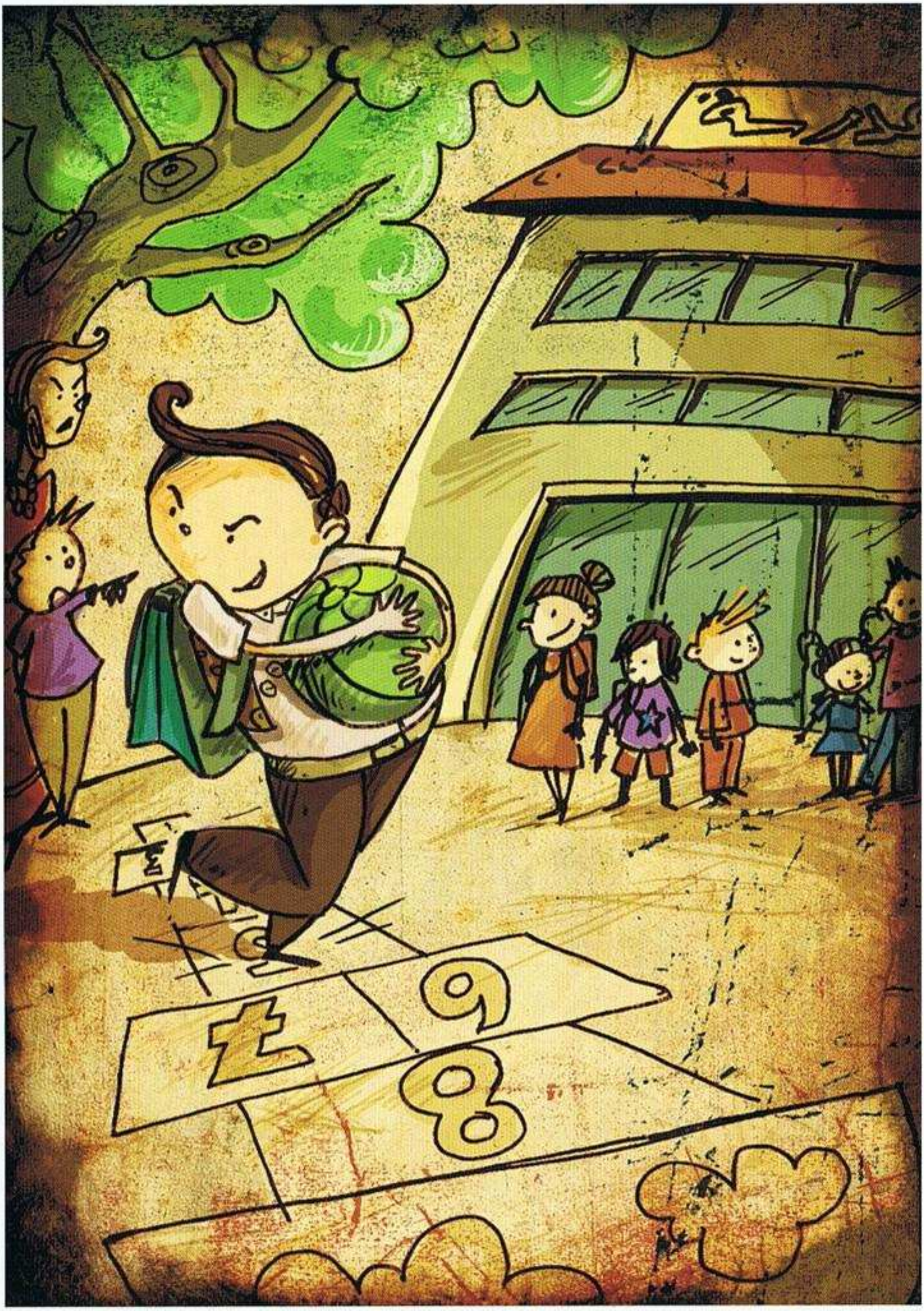
أنا اسْمي رائد. أُمّي تَقولُ لي دائماً « أَنْتَ أَجْمَلُ صبي».
وأَنا كُلَّما نَظَرْتُ في المِرْآة، أَجِدُ أَنَّ أُمّي مَعَها حق، فَأَنا جَميلٌ وأَنْتَبِهُ دائماً إلى شَعْري أَضَعُ عَلَيْهِ الجل وأَجْعَلُ الغُرَّةَ الأَمامِيَّةَ جامدةً ومعكوفةً، على جانبِ رأسي، مرةً على جهة اليمينِ ومرةً على جهة اليسار.

أَبي أَيْضاً يُحِبُّني وهو مُعْجَبٌ بي مع أَنَّه لا يَبْقى كَثيراً في البَيْتِ لأَنَّهُ يَعْمَلُ في الخليج، وحينَ يَأْتي لا يكونُ لَدَيْهِ وقْتٌ



كثير لِكي يُحَدِّثني. صحيح أنّي كنت أزعل منه أحياناً لأنّه لا يبقى معنا مثلَ رفاقي الذين يعيشونَ مع آبائهم دائماً، ولكنّي الآنَ لم أعدْ أقولُ شيئاً لأنّه عندما يَأْتي مِنَ السَّفرِ يُحْضرُ لي هدايا كَثيرَة. أُحبُّ صورَتَهُ المُعَلَّقَةَ على الحائط، وكُلَّما حانَتْ مِنّي التِفاتَةٌ لها، أَتَمَنّى أنْ أكْبَرَ وأُصْبِحَ قَويًّا مِثْلَه.

في المَدْرَسَة رِفاقي لا يَلْعبونَ مَعي، ويقولونَ عَنّي أَنّي لا أُطاق. حينَ نَخْرُجُ إلى المَلْعَبِ أَجِدُهُمْ يَتَحادَثونَ مع بَعْضِهِمْ وإذا انْضَمَمْتُ إِلَيْهِم لا يَنْظرونَ إِلَيَّ ولا يُوَجِّهونَ لي الحَديث، ثُمَّ يَذْهَبونَ لِيَلْعَبوا بالباسْكيتْبول دون أن يطلبوا مني أن ألعبَ معهم. فماذا أَفْعَلُ في مِثْلِ هذه الحالة؟ لا شَيْءَ. فَقَطْ أَقِفُ جانِباً وأَنْتَظِرُ أَنْ تَقْتَرِبَ الطّابَةُ مِنّي، عندَها أَنْدَفِعُ وأَلْتَقِطُها ولا أَرُدُّها لهم بَل أَرْكُضُ ثُمَّ أَقْذِفُها بَعيداً. فَيَصْرُخون بي « أَنْتَ سَئيل! أَنْتَ سَئيل! »



رِفاقي أَغْبِياءُ لأَنَّهم لا يُحِبّونَ أنْ يَلْعبوا معي. وأَنا أُحِبُّ أنْ أُضايِقَهُمْ ويُسْعِدُني أنْ أخْدَعَهُم. أَحْياناً أَرْجوهُمْ أَنْ يَسْمَحوا لي بِالمُشارَكَةِ معَهُمْ وأَعِدَهُمْ أَنْ أَكونَ لَطيفاً فَيَقْبَلونَ أَنْ أَلْعَبَ مَعَهُم. ولكنّي حينَ أَلْعب وأُمْسكُ الطّابَةَ لا أُعطي «باس» لأَحَد، بل أَمْسُكُها وأَرْكُضُ بها لِكَي أَصِلَ إلى السَّلةِ فَيَأْتي لاعبٌ مِنَ الفَريقِ الآخَرِ ويَعْمَلُ عَلَيَّ «ستيل» ويَأْخُذُ منّي الطّابَة. عندها أرى رفاقي يتأفّفون. ماذا أفعل؟ أنا أُحبُّ أَنْ أكونَ «البلايمايكر» الأَوّلَ دائماً، وأُحِبُّ أنْ تَكونَ كُلُّ الأَشْياءِ لي.

ويا وَيْلَ أيِّ واحدٍ من رِفاقي إذا قامَ بِشَيْءٍ لم يُعْجِبْني فإنّي أَنْتَظِرُ أنْ تَبْتَعِدَ المُعَلِّمَةُ لأَشُدَّهُ بِشَعْرِه. وإذا شَعَرْتُ بِالغَيْظِ الشَّديدِ منه، أَضْرُبُه ولا يَهُمُّني شَيْء. إذا شَكاني لِلمُعَلِّمَةِ ماذا سَتَفْعَل؟ سَتَجْعَلُني أَقِفُ في الزّاوِيَةِ أَوْ تُرْسِلُني إلى مس سُعادَ أَو تُخْرِجُني منَ الصَّفّ! ماذا يَعْني؟ أنا لا يَهُمُّني.

أُحِبُّ كَثيراً إزْعاجَ الآخرين. آخُذُ الدَّفْتَرَ مِنْ يَدِ أُخْتي الصَّغيرَةِ وهي تَكْتُب، فَتَصْرُخُ وتبكي. حينذاك تَأْتي أُمّي فَتَقولُ لي أَرْجِعْ لها الدَّفتَرَ يا رائد، ولكِنّي أَضَعُه في مَكانٍ عالٍ لا تَسْتَطيعُ أُخْتي أنْ تَصِلَ إليه. وإذا رَكَضَ أحَدُ رِفاقي بِسُرْعَةٍ أمامي، أَمُدُّ رِجْلي وأُفَرْكِشُهُ فَيَذْهَبُ ويَشْكوني إلى المُعَلِّمَة الّتي تُعاقِبُني بِمَنْعي مِنَ الخُروجِ على الفُرْصَةِ وأَحْياناً تَطْلُبُ مِنْ أُمّي الحُضورَ إلى المَدْرَسَة. وأنا أَسْخَرُ مِن الجَميع، خُصوصاً رِفاقي الشّاطِرينَ في الصَّفّ. ماذا سَيَفْعلونَ بِشَطارَتِهِمْ؟ سَيُصْبِحونَ وُزراءَ أَمْ رِجالَ سِياسَةٍ أَمْ أَصْحابَ أعْمال؟ يا لَسَخَفِهم! إنّ المالَ يَصْنَعُ كُلَّ شَيْءٍ وأنا أبي لَدَيْهِ مالٌ كَثيرٌ، ويُمْكِنُني أَنْ أَصْنَعَ به أَيَّ شَيْء.

في أَحَدِ الأَيّام، شاهَدْتُ بِنْتاً حُلْوَةً في مَلْعبِ المَدْرَسَة، فَسَأَلْتُ عَنْها رِفاقي، قالوا لي إنَّها تلميذَةٌ جَديدَةٌ إسمها ياسمين، كانَتْ مُسافِرَةً وعادَتْ مع أَهْلِها مُنْذُ فَتْرَةٍ قَريبَة، وتَسَجَّلَتْ

في مَدْرَسَتِنا. وصِرْتُ كُلَّما رَأَيْتُها أَشْعُرُ بِشَيْءٍ ما يَحْدُثُ داخِلي. نَظَراتُها الرَّقيقَةُ وهي تُصْغي لِمَنْ يُحَدِّثُها تَخْطَفُ قَلْبي. وضَحَكاتُها الصّافيَةُ حينَ تَتَحادَثُ مع رِفاقِها تَسْلُبُ عَقْلي. وصَوْتُها حينَ يَدْخُلُ أُذُني يُجَمِّدُني في مَكاني.

مَرَّةً لَحِقْتُ بِها لأقولَ لها إنّها تُعْجِبُني وأَتَمَنّى لو نُصْبِحُ صَديقَيْن. ولكنْ ما إنْ شاهَدَتْني حتّى جَفَلَتْ وابْتَعَدَت. لماذا تَخافُ منّي؟ تَساءَلْتُ بَيْني وبَيْنَ نَفْسي كَثيراً. وعِنْدَما عُدْتُ إلى البَيْت، نَظَرْتُ في المِرْآة: «أنا وسيم، لا شَكَّ بذلك. وتَصْفيفَةُ شَعْري رائِعَة. كُلُّ ما فيّ جَذّاب». رَأَتْني أُمّي وقالَتْ «تُقْبُرْني ما أَجْمَلَك!». وصُرْتُ أُفَكِّرُ بِتِلْكَ الفَتاةِ كَثيراً عنْدَما أَجْلِسُ لأَلْعَبَ «كاونتر سترايك» على الكُمْبيوتَر، أَو أُشاهِدُ بَرْنامَج «باب الحارَة» على التِّلِفِزْيون. وعِنْدَما أَتَمَدَّدُ على سَريري لِكَيْ أَنامَ أَظَلُّ أُفَكِّرُ فيها حتّى يَغْلُبَني النُّعاس.

في اليَوْمِ التّالي قررْتُ أن أفعلَ شيئاً. لَبِسْتُ البَنْطَلونَ الجينْزَ الواسِعَ الذي يَسْقُطُ عنِ الخَصْرِ وأَجُرُّه على الأَرْضِ خلفي مع قَميصٍ عَلَيْه دَوائِرُ ومُرَبَّعاتٌ مُلَوَّنَةٌ وانْتَظَرْتُ البِنْتَ الحُلْوَةَ في المَلْعَب. عِنْدَما لَمَحْتُها، رَكَضْتُ نَحْوَها لأَلْعَبَ معَها، ولكنَّها ما إنْ شاهَدَتْني حتّى ابْتَعَدَتْ، تَماماً مِثْلَما حَصَلَ بِالأَمْس. هل يا تُرى لمْ يُعْجِبْها القَميصُ الذي أَرْتَديه!



في اليَوْمِ الثاني لَبِسْتُ البَنْطَلونَ الجِينْزَ مع قَميصٍ آخَرَ عَلَيْهِ وُرودٌ مُزَرْكَشَة، واعْتَمَرْتُ بُرْنَيْطَةً صَفراء، وانْتَظَرْتُ ياسمين الحُلْوَةَ في المَلْعَب. عندَما لَمَحْتُها، رَكَضْتُ نَحْوَها لأَتَحادَثَ معَها، ولكنَّها أَيْضاً ما إنْ شاهَدَتْني قادِماً حتّى ابْتَعَدَت.

جَلَسْتُ مَهْموماً وأنا أُفَكِّرُ كَيْفَ يُمْكِنُني أَنْ أُصْبِحَ صَديقَها. وقَرَّرْتُ أَنْ أَسْأَلَ سامِراً فَأَنا أَعْرِفُ أَنَّ لَدَيْهِ أَصْدِقاءَ كَثيرين صُبْياناً وبَنات، مع أَنّي لم أَكُنْ مُعْجَباً بِطَريقَتِهِ اللَّطيفَةِ وأَقولُ عَنْه أنَّه نَعْنوعٌ وبَصّيم. تَقَدَّمْتُ منْهُ وقُلْتُ له: «أَنْتَ يا سامِر، كَيْفَ يُمْكِنُكَ أَنْ تُصادِقَ الصُّبْيانَ والبَنات، ماذا يَجِدونَ فيك؟». لم يَفْهَمْ سامِرٌ أَنّي جِدِّيٌّ في سُؤالي وظَنَّ أَنّي أَسْخَرُ مِنْه، رُبَّما لأنّي لمْ أَنْتَبِهْ لِلَهْجَتي وأنا أُكَلِّمُه. فَقال: «عَلَيْكَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ أَنْ تَكونَ لَطيفاً، واللُّطْفُ يَبْدَأُ بِأَنْ نَعْرِفَ كَيْفَ نَتَكَلَّم». لم أَفْهَمْ شَيْئاً من كَلامِه. كَيْفَ يَتَكَلَّمونَ بِلُطْف؟ وهَلِ الكَلامُ يَتَغَيَّر إذا نَطَقْنا بِهِ بِهذِهِ الطَّريقَةِ أَوْ بِتِلْك؟ يا له مِنْ صَبِيٍّ سَخيف.

ماذا أَفْعَل؟ فَكَّرْتُ كثيراً. كَيْفَ أَجْعَلُها تُعْجَبُ بي؟ كَيف؟ كَيف؟ أخذتُ أفكر وأنا أسيرُ لوحدي في الملعب. فجأةً شاهَدْتُها جالِسَةً على المَقْعَدِ الخَشَبيِّ مع رَفيقَتِها تَتَحادَثان. ولَمْ تَنْتَبِها إلى أنّي واقِفٌ بِالقُرْبِ مِنْهُما. سَمِعْتُها تَقولُ إنَّها تُحِبُّ الصُّبْيانَ اللَّطيفين وتَكْرَهُ الّذينَ يُزْعِجونَ الآخَرين، وصارَتْ تُخْبِرُها عن صَبِيٍّ معَها في الصَّفِّ يُضايِقُ الآخَرين، يَأْخُذُ الأَقْلامَ ويُخَرْبِشُ على الأَوْراقِ ويَضُجُّ كُلَّ الوَقْت ويَحْشُرُ أَنْفَه في كُلِّ شَيْء. لذلك هي لا تُحِبُّ أَنْ تَلْعَبَ معه. إذَن هكذا هو الأَمْر! قَرَّرْتُ أَنْ لا أَفْعَلَ شَيْئاً مِمّا ذَكَرَتْه أَمامي. وصُرْتُ حينَ أُشاهِدُها في المَلْعَبِ أَكونُ لَطيفاً مع رِفاقي ولا أُزْعِجُ أحداً. وإذا رَمَوا الطّابَةَ والْتَقَطْتُها أقومُ بِرَدِّها إلى رِفاقي لِيَلْعبوا بِها.

وفي يَوْمٍ الْتَقَيْتُ بِها في باصِ المَدْرَسَة. يا لِلْمُفاجَأَةِ الجَميلَة! كَيْفَ حَدَثَ أَنَّ ياسمين تُرافِقُني في نَفْسِ الباص؟



اه، تَذَكَّرْت، أَنَّ المَسْؤولَةَ قالَتْ لِبَعْضِ التَّلاميذِ أَنَّهُم سَيَذْهَبونَ بالباصِ رَقْمِ 9 لأَنَّ الباصَ رَقْمَ 5 مُعَطَّل. رَأَيْتُها تَجْلِسُ على مَقْعَدٍ وفي يَدِها كِتابٌ تَقْرَأُ فيه وتَبْدو غارِقَةً. جَلَسْتُ بِقُرْبِها.

سَأَلْتُها: ماذا تَقْرَأين؟ قالَت: «النَّصّاب».

«ماذا؟ هل هي تَسْخَرُ مِنّي؟» فَكَّرْتُ في عَقْلي.

وكَأَنَّها عَرَفَتْ ماذا يَجولُ في رَأْسي فَقالَتْ لي «هذا عِنْوانُ القِصَّة، ومُؤَلِّفُها هو سَماحُ إِدْريس، إِنَّها قِصَّةٌ مُشَوِّقَةٌ أَنْصَحُك

بقراءَتِها». شَعَرْتُ بِسُرورٍ كَبيرٍ لأَنَّها تَتَكَلَّمُ معي فَحاوَلْتُ أَنْ أُطيلَ المُحادَثَةَ قَدْرَ ما أَسْتَطيع. قُلْت لها: «ولكِنْ لماذا تَقْرأين؟ ماذا تَنْفَعُكِ القِراءَة؟ ألا يَكْفينا ما يُعطونَنا أيّاه من دُروسٍ في الصَّفِّ لِكَيْ نَقْرَأَ كُتُباً أُخْرى؟». ضَحِكَتْ تِلْكَ الضَّحْكَةَ الصّافِيَةَ التي أَشْعُرُ بِأَنَّها تَقْبُضُ على قَلْبي وتَسْحَبُه، وقالَتْ: «ولَكِنَّ القِراءَةَ شَيْءٌ مُمْتِع. هي لَيْسَتْ كَالدُّروس. نَحْنُ نَخْتارُ الكُتُبَ الَّتي نُحِبُّها ونَقْرَأُها ولا أَحَدَ يَفْرُضُها عَلَيْنا».

«ولكنَّ الكُتُبَ كُتُب. ما الفارِقُ بَيْنَ كُتُبِ المَدْرَسَةِ والكُتُبِ التي نَقْرَأُها بِاخْتِيارِنا؟ ماذا تَنْفَعُنا القِراءَة؟» سَأَلْتُها بِكُلِّ صِدْقٍ ورَغْبَةٍ بِأَنْ أَعْرِفَ ما الّذي يَشُدُّها.

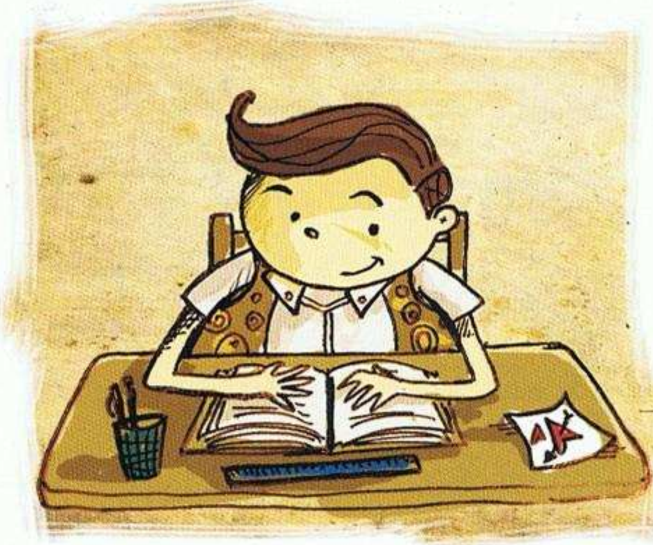
قالَت ياسمين: «حينَ تَقْرَأُ تَعيشُ مع الكاتِبِ ومع أَشْخاصِ الْقِصَّةِ وكَأَنَّكَ مَعَهُم، يَنْقُلُكَ الكِتابُ إلى عالَمٍ آخَر، كَأَنَّكَ سافَرْت إلى بلدٍ جديد، أَوْ كَأَنَّكَ حَلَمْتَ حُلْماً جَميلاً. ألا يُسْعِدُك السَّفَرُ أوِ الحُلُم؟» وسَمِعْتُ صَوْتي أَقولُ لها «بَلى يُسْعِدُني ذلك» قالَت: «سَأُعيرُكَ هذا الكِتاب. اِقْرَأْهُ وأَخْبِرْني رَأْيَكَ وحينَ نَلْتَقي غَداً

في المَدْرَسَةِ نَتَكَلَّمُ عَنْه». أَخَذْتُ الكتابَ ولمْ أُصَدِّقْ عَيْنَيّ. إنَّها تُعْطيني الكتِابَ، إنَّها تُعطيني هَدِيَّة. ثم إنَّها وعَدَتْني بِأَنْ نَتَكَلَّمَ غداً وهذا ما كُنْتُ أَحْلُمُ بِهِ. يا اللهُ ما أَسْعَدَني!

حينَما فَتَحَتْ أُمّي الباب، عانَقْتُها وقَبَّلْتُها وأَنا كُلّي سَعادَة. وقُلْتُ لها «أُمّي حَبيبَتي أُريدُ أَنْ آكُلَ فَوْراً. أنا جَوْعان. ولَدَيَّ أشْياءُ كَثيرَةٌ أُريدُ أَنْ أَقومَ بها ولَدَيَّ كِتابٌ أُريدُ أَنْ أَقْرَأه.» اسْتَغْرَبَتْ أُمّي حالَتي وقالَتْ:« خَيْرٌ إن شاءَ اللهُ. أَيْنَ النَّقُّ اليَوْم؟ ألم يُزْعِجْك رِفاقُك؟ أَيْنَ المشاكِلُ مع المعلِّمَة؟» لم أَرُدّ، بَلْ ذَهَبْتُ بِسُرْعَةٍ لأَغْسِلَ يَدَيّ.

بَعْدَ الطَّعام، دَخَلْتُ فَوْراً إلى غُرْفَتي وفَتَحْتُ الْكِتابَ الهَدِيَّةَ وأَخَذْتُ أَقْرَأُ وأُفَكِّرُ بِها، وأَتَخَيَّلُ ضِحْكَتَها الّتي تَخْطُفُ قَلْبي وصَوْتَها الذي يُجَمِّدُني ونَظْرَتَها السّاحِرَةَ الّتي تَأْسُرُ عَقْلي. ولكِنّي بَعْدَ قَليلٍ نَسِيتُ كُلَّ شَيْءٍ وأَخَذَني الكِتاب. تَحَمَّسْتُ

وصُرْتُ كَأَنّي أنا بَطَلُ القِصَّةِ وأُريدُ أَنْ أَجِدَ ذلك النَّصّابَ الذي خَدَعَ مازناً ووالدَه...



ولَمْ أُغلقِ الكِتابَ حَتّى انْهَيْتُ قراءَتَهُ بالكامل. كانَ اللَّيْلُ مُتأَخِّراً، وكُنْتُ نَعسانَ، ولكِنّي قَبْلَ أَنْ أَدْخُلَ إلى سَريري كَتَبْتُ على ورَقَةٍ بَيْضاءَ صَغيرَة: «عزيزتي ياسمين، اسْتَمْتَعْتُ جِدًّا بِقِراءَةِ الكِتاب. شُكْراً على هَدِيَّتِك الجَميلَة.» ووَضَعْتُ الوَرَقَةَ بَيْنَ صَفَحاتِ الكِتابِ. ثُمَّ نِمتُ وأنا أَشْعُرُ بِأَنّي قُمْتُ بِشَيْءٍ جَميلٍ هذا النَّهار.

في الْيَوْمِ التّالي انْتَظَرْتُ صديقتي الحُلْوَةَ في المَلْعَب. عِنْدَما أَطَلَّتْ، رَكَضْتُ نَحْوَها مُسْرِعاً وقُلْتُ لها لَقَدْ قَرَأْتُ الكِتابَ وأَحْبَبْتُه. نَظَرَت ياسمين إِلَيّ بِتِلْكَ النَّظْرَةِ الآسِرَة. أَخَذَتْ مِنّي الكتابَ وابْتَسَمَتْ. ثُمَّ قالَتْ: «تَعالَ لِنَجْلِسَ ونَتَحَدَّث وتقولَ لي رَأْيَك بالكِتاب بالتفصيل.»



جَلَسْتُ بجانِبِها وأَنا أكادُ أَطيرُ مِنَ الفَرَح. شَيْءٌ ما في داخِلي تَغَيَّر. أَحْسَسْتُ أَنّي شَخْصٌ جَديد، شَخْصٌ كَبيرٌ وجِدِّيّ. لَدَيَّ ما أَتَكَلَّمُ به، ولَدَيَّ رَأْيي، وهُناكَ مَنْ يُحِبّ أَنْ يَتَكَلَّمَ معي.

قُلْتُ لها ما أَعْجَبَني في الكِتابِ وما لَمْ يُعْجِبْني أيْضاً. ورَأَيْتُ الإعْجابَ يَرْتَسِمُ في عَيْنَيْها وقالَت: «نَعَمْ، نَعَمْ، مَعَكَ حَقّ، أنا لَمْ أنْتَبِهْ لِتِلْكَ النِّقاطِ الّتي ذَكَرْتَها. كُلُّ شَخْصٍ يَقْرَأُ القِصَّةَ ويَعيشُها بِطريقَتِه.» وطَلَبْتُ منْها أَنْ تُعيرَني كُلَّ كُتُبِ المُؤَلِّفِ لأقْرَأَها، لأنَّني شَعَرْتُ كَأَنَّه صارَ صَديقي. قالَت: «حَسَناً، لَدَيْه كِتابٌ آخَرُ سَأُعيرُكَ إيّاهُ، وسَأُعيرُك كُتُباً كثيرة أُخْرى لِمؤَلِّفين آخَرين».

ثُمَّ قالَتْ لي وهِي تَضْحَكُ لي تِلْكَ الضِّحْكَةَ الصّافِيَةَ: «تَعالَ لِنَنْضَمَّ إلى بَقِيَّةِ الأَصْدِقاء.» وأَنا عِنْدَما سَمِعْتُ كَلِماتِها جَمَدْتُ في مَكاني لِلحظات، ثُمَّ لَحِقْتُ بِها وقَلْبي يَرْقُصُ مِنَ الفَرَح. حينَ شاهَدني رِفاقي قادِماً مَعها، أَفْسَحوا لنا المَجالَ لِكَيْ نَنْضَمَّ إلَيْهم.

كَمْ أنا سَعيد!، أنا أُحِبُّ رِفاقي وأُحِبُّ مُعَلِّماتي وأُحِبُّ كُلَّ النّاس. أنا أُحِبُّ ياسمين.



أصالة

أصالة للنشر والتوزيع – طبعة أولى 2009
ISBN: 978-9953-537-32-0
تلفون: +961 1 736 093
فاكس: +961 1 735 295
ص.ب: 11/3434
الزيدانية، بناية كريدية – بيروت، لبنان

نَظَرْتُ في المِرْآة: «أنا وسيم، لا شَكَّ بذلك.
وتَصْفيفَةُ شَعْري رائِعَة. كُلُّ ما فيّ جذّاب».
رَأَتْني أُمّي وقالَتْ «تُقْبُرْني ما أَجْمَلَك!»

ISBN 978-9953-537-32-0
9 789953 537320
Book #A 327
أصالة للنشر والتوزيع